ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾

﴿ وَكَأَيِّن (٤٨) ﴾ [الحج] قلنا : تدل على الكثرة يعنى : كثير من القرى ، ﴿ أَمْلَيْتُ (٤٨) ﴾ [الحج] : أمهلتُ ، لكن طول الإمهال لا يعنى الإهمال ؛ لأن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا (٤٨) ﴾ [الحج] وأخْذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أخْذه ؟

فى آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] لا يُغَالب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج] يعنى : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث فى الأمم السابقة التى أهلكها الله بالخسْف أو بالغرق .. الخ ، أما فى أمة محمد ﷺ ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية فى الدنيا ، كالذى حلَّ بالكفار من الخِزْى والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أمّا العذاب الحقيقى فينتظرهم فى الآخرة .

لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ : لا تستبطىء عذابهم والانتقام منهم فى الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب فى الدنيا ستراه فى الآخرة : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) ﴾

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أنْ يُنجى نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أذكِّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أَخْذَ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجوَ من دواعى الهلاك .

ومعنى ﴿ مُبِينٌ (٤٩) ﴾ [الحج] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) ﴾

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت أَلَمَّتْ نفوسهم بشىء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذَّال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذى تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِى ... عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَات سَبِيل

فالرزق نفسه كريم ؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور ، وهكذا .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾

السعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قطع مسافة نقول : سِرْنا من كذا إلى كذا ، وإنْ كان فى قضية علمية فكرية ، فيعنى : أن الحدث يعمل من شيء بداية إلى شيء غاية .

والسَّعْيُ لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقه ، فإنْ كان فى خير فهو محمود ممدوح ، كالسعى الذى قال الله فيه : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾ [الإسراء] ، وإنْ كان فى شرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعى الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعنى : الوشاية والسَّعى بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَّاء بين الخلق يعنى : بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى ، وهؤلاء إنْ علموا الخير أخفَوْه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .

لذلك ، نقول عَمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الآخذ ، يعنى : الذى سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخَلْق .

وقد وشى واشٍ بهمام بن عبد الله السلولى إلى زياد بن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشى : أأجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشى بُدّاً من أنْ يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قال ؟! ولعله قال فى نفسه : لعل الله يقضى أمراً يُخرِجنى من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همام فأُتى به ، وقد جعل زياد الواشى فى مجلسه خلف ستار ، وأُدخِل همام ، فقال له : يا همام بلغنى أنك هجوْتنى ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلتُ ، ولا أنت لذلك بأهْل ، فكشف زياد الستار وقال : هذا الرجل أخبرنى أنك هجوتنى ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أنتَ امْرؤٌ إمّا ائتمنْتكَ خَالياً ... فَخُنْتَ وإمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الأمْرِ الذى كَانَ بيننَا ... بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإثْمِ[1]

يعنى : أنت مذموم فى كل الأحوال ؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحفظ سراً فضفضتُ لك به ، وإمَّا اختلقْتَ هذا القوْل كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همام الخُلَع[2] ، لكنه لم يعاقب الواشى ، وفى هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن ينقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه .

---

(١) أورد الغزالى هذه الأبيات فى « إحياء علوم الدين » (١٥٧/٣) ، ولكنه ذكر قصة غير هذه فى مناسبتها ، قال : « سعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال .. » وذكر الأبيات .

(٢) الخِلْعة من الثياب : ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه . كل ثوب تخلعه عنك خِلْعة . [لسان العرب - مادة : خلع]

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا (٥١)﴾ [الحج] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعنى : قالوا فيها قَوْلاً باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشى بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إنْ نظروا فى آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة . وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبىٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلَى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ(٥١)﴾ [الحج] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعنى باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذى نأخذه فى الشهيق ، ونُخرجه فى الزفير ، والذى به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضى الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسنى فى الماء ، يعنى : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفَس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو فى جَوِّ الهواء ، أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة ؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتى الذى اختزنه كل منهما فى رئته ، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح

صَدْراً من الآخر ، وأيُّهما أكثر تحمُّلاً تحت الماء . هذه هي المعاجزة .

فمعنى ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ..(٥١)﴾ [الحج] أي : يظنون أنهم قادرون أن يُعجزونا ، فحين نأتي إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به ، فأنَّى يكون لهم ذلك ؟ وأنَّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله ؟

ثم يُبيِّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة : ﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾ [الحج] فهذا حُكْم الله فيهم قضية واضحة من أقصر الطرق ، فمَنْ ذَا الذي يُعجز الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾

---

(١) سبب نزول الآية : أورد الواحدي في أسباب النزول (ص ١٧٨) عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [النجم] فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى . ففرح بذلك المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال : اعرض عليَّ كلام الله . فلما عرض عليه فقال : أما هذا فلم آتك به ، هذا من الشيطان . فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ..(٥٢)﴾ [الحج].

قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢٢٩) : « قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم » .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/٤٦١٢) : « الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ، ليس منها شيء يصح » وقال القاضي عياض في كتاب « الشفا بتعريف حق المصطفى » : « هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم » .

أثارت هذه الآية جدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿ تَمَنَّىٰ ۝٥٢ ﴾ [الحج] وهى تَرِد فى اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أوْلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتى التمنى فى اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد فى قول حسان بن ثابت فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما :

تمنَّى كتابَ الله أوَّلَ لَيْلةٍ ... وآخِرَهَا وَافَاهُ حَتْم المقَادِرِ[1]

يعنى : قُتل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب فى حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه[2] .

وتأتى تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، وهذا هو القول المشهور فى لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ .. ۝٥٢ ﴾ [الحج]

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أمّا النبى فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبى مشتركيْن فى إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، لا بمعنى قرأ ، فأيُّ شىء سيقرأ النبى (ليس معه كتاب ؟

والذين فهموا التمنى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۝٥٢ ﴾ [الحج] أنه

---

(١) ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : منى ، بلفظ :

تَمنَّى كتَابَ الله أوَّل لَيْله ... وآخِرَهُ لاَقَى حِمَامَ المقَادِر

(٢) قال أبو منصور : والتلاوة تسمى أمنية لأن تالى القرآن إذا مرَّ بآية رحمة تمناها ، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يُوقَّاهُ . [لسان العرب - مادة منى] .

بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمِّقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخَّل الشيطان فى القراءة ، حتى يُدخِل فيها ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [النجم] ثم أضافوا : والغرانيق[1] العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكأن الشيطان أدخل فى القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكِّك فى قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى فى القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف نُدخل فى القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرانيقَ العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] كيف ينسجم هذا وذاك ؟

---

(١) الغرانيق : الأصنام ، وهى فى الأصل : الذكور من طير الماء . وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه ، فشبهت بالطيور التى تعلو وترتفع فى السماء . [لسان العرب - مادة غرنق].

(٢) الوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أنْ يُدخل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات ، أتنتظر من عدو الله أنْ يُخلي الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوِّش عليهم ، ويُبلبل أفكارهم ، ويَحُول بينهم وبين سماعه ؟

فإذا تمنّى الرسول يعني : قرأ ألقى الشيطان في أمنيته ، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون في القرآن : سحْر وشعْر وإفْك وأساطير الأولين . فدوْر الشيطان - إذن - لا أنْ يُدخلَ في كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يُمكِّنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أنْ يُلقي في طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به ، وتُفسد القرآن في نظر مَنْ يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيَّبَ الله سَعْيه ، ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأملتْ فآمنتْ وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾ [الحج] يعني : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التي أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن ، وأحكمَ اللهُ آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعْجز

الذى لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول مَنِ اعتبر أن ﴿تَمَنَّىٰ (٥٢)﴾ [الحج] بمعنى : قرأ .

أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذى نتمناه ، فنقول : الرسول الذى أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق ، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج فى نفسه فإنَّ أُمنيته أن يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أنْ يسودَ منهجه ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة فى الناس .

والنبى أو الرسول هو أَوْلَى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١) .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته فى قومه أَمْ يضع فى طريقه العقبات ، ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرَّد عليه قومه حيث يُذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يُلْقِى الشيطان فى أُمنيّة الرسول ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (٥٢)﴾ [الحج] وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، أليس هو صاحب فكرة : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ..(٢٦)﴾ [فصلت]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

إن الشيطان لو لم يُلْقِ العراقيل فى سبيل سماع القرآن ويُشكّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ؛ لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشيطان فى عَضُد القرآن ، ولا فى عَضُد الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدِّقين به ، المهم أن نتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالى من هوى ، فالذى يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق .

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين فى وقت واحد ، لا بُدَّ أنْ تُخرج أحدهما لتُدخل الآخر ، فعليك ـ إذن ـ أنْ تُخلى عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلام الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهى إلى الإيمان به شريطة أنْ تُصفِّى له قلبك ، فلا تُبق فى ذهْنك ما يُعكِّر صَفْو الفطرة التى خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشْرِب قلبُك حُبَّ القرآن ، فلا يزحزحه بعد ذلك شىء .

ولنا فى إسلام سيدنا عمر مثالٌ وعظَة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أدْمى وجهها ، وعندها رَقَّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكأن عاطفة الحب زحزحتْ عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعه ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور[1] .

---

(١) قصة إسلام عمر بن الخطاب ذكرها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٤٤) وفيها أنه قال : « لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجَّها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى » .

كذلك ، إنْ أردت أنْ تناقشَ قضية الإيمان أو الكفر ، وأنْ تختار بينهما ؛ لأنهما لا يجتمعان أبداً ، ولا بُدَّ أنْ تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان ؛ لأن الله يطبع على القلب المُصرِّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما اخرجْ الكفر أولاً وتحرَّر من أسْره ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

أما أنْ تناقش قضية ، وفي ذهْنك فكرة مُسبقة ، فأنت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] يعني : ما الجديد الذي جاء به ؟ وما المعجزة في هذا الكلام ؟ فيأتي الرد : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاي الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إنْ أردتَ أنْ تُدفيء يديك في برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف - إذن - والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (٥٢) ﴾ [الحج]

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبى أو رسول يتمنى يعنى : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبَّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أنْ يتركه الشيطان وما أحبَّ ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن فى النهاية ينصر الله رسُله وأنبياءه ، وينسخ عقبات الشيطان التى ألقاها فى طريق الدعوة ، ثم يُحكِم الله آياته ، ويؤكدها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد .

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ أَلْقَى (٥٢) ﴾ [الحج] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦٤) ﴾ [المائدة]

ومما قاله أصحاب الرأى الأول فى تفسير ﴿ تَمَنَّىٰ (٥٢) ﴾ [الحج] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزِل على رسوله ﷺ أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إنْ همَّتْ بشريته بشىء يعصمه الله منها .

لذلك يقول ﷺ : « يَرِدُ علىَّ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منِّى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلاَّت البشر .

ومن بشريته ﷺ أنه تعرَّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءً ، وسباباً ، واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تآمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيَّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ